

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74]

✽ مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هذه الآية تتمةً لخطاب بني إسرائيل حيث ختم الآية السابقة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم ابتدأ هذه بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المقام يُفيدُ الترتيبَ الرتبي الذي تنهياً له ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَطَفَتِ الْجُمْلُ، كأنه قيل: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم، ولم تنفعكم الآيات، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ، وكان مِنَ الْبَعِيدِ قَسَوْنَهَا⁽¹⁾. أي: مع كل ما مضى من شأنهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها؛ لتكون آية على إحياء الموتى، وإظهار القاتل، يبست قلوبكم وتحجرت، ولم تتأثر مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة، مِنْ إحياءِ الْقَتِيلِ وَتَكْلُمِهِ وَتَعْيِينِهِ لِقَاتِلِهِ⁽²⁾، بل الحجارة أنفع منكم في أنها مظنة تفجر الأنهار، وخروج الماء، وهبوطها من خشية الله.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿قَسَتْ﴾: من الجذر اللغوي (قسو)، ومنه "القسوة: الصلابة في كل شيء، وقسا يقسو فهو قاسٍ. وليلة قاسية: شديدة الظلمة. والمقاساة: معالجة الأمر ومكابدته"⁽³⁾.

والأصل في معناه: الدلالة على الصلابة والقوة والشدة، كالأحجار القاسية، وقد يشبه بها القلوب القاسية؛ لما فيها من الغلظة⁽⁴⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/562.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/118.

(3) الخليل، العين: (قسو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسي).

و"القَسْوَةُ: غِلْظُ القلبِ، وأصله من: حَجَرٍ قَاسٍ، والمُقَاسَاةُ: مُعَالَجَةُ ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾⁽¹⁾، ومعناه: اشتدَّت وصلبت.

(2) ﴿قُلُوبُكُمْ﴾: من الجذر اللُّغَوِيّ (قلب)، وله أصلان صحيحان: "أحدهما يدلُّ على خالص شيءٍ وشريفه، والآخر على ردِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة"⁽²⁾.
والمعنى المحوري لهذا الجذر "باطنُ الشيءِ ولُبُّه: كالقلوبِ المذكورة، وَقَلْبُ الأرضِ إخراجُ لباطنِها، ومن ذلك القلبُ: المضغَةُ المعروفة؛ لأنها أهمُّ ما في الباطن وأقواه"⁽³⁾، وهو المرادُ في الآية.

وأطلق على القلب قلباً "لكثرة تقلُّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به من الرُّوح والعلم والشَّجاعة"⁽⁴⁾.

(3) ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾: الجذر اللُّغَوِيّ له (حجر)، والأصل في معناه: المنعُ والإحاطةُ على الشيء. فالْحَجَرُ حَجَرُ الإنسان، وَالْحَجَرُ الصَّخْرَةُ، وَأَحْسِبُ أَنَّ البابَ كُلَّهُ مَحْمُولٌ عليه، وَمَأْخُوذٌ منه؛ لِشِدَّتِهِ وصلابَتِهِ⁽⁵⁾، أي: أَنَّ المنعَ يشبه الحَجَرَ؛ لِشِدَّتِهِ وصلابته ومنعته⁽⁶⁾.

وهو أيضاً "الجَوْهر الصُّلْبُ المعروف، وجمعه: أَحجارٌ وَحِجَارَةٌ... وقيل: أراد بالحجارة الذين هم في صلابتهم عن قَبُولِ الحقِّ كالحجارة، كمن وصفهم بقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾"⁽⁷⁾.

(4) ﴿يَتَفَجَّرُ﴾: من الجذر اللُّغَوِيّ (فجر)، والأصل في معناه "التَّفَتُّحُ في الشيءِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَجْرُ: انفِجارُ الظُّلَمَةِ عَنِ الصُّبْحِ. ومنه: انفَجَرَ الماءُ انفِجارًا: تَفَتَّحَ. والْفُجْرَةُ: مَوْضِعُ تَفَتُّحِ الْمَاءِ"⁽⁸⁾.

(1) الرَّاغِب، المفردات: (قسو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي للوُضُل: (قلب).

(4) السَّمين، غمدة الحفاظ: (قلب).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).

(6) السَّمين، غمدة الحفاظ: (حجر).

(7) الرَّاغِب، المفردات: (حجر).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).

و"الْفَجْرُ: شَقَّ الشَّيْءَ شَقًّا وَاسِعًا، كَفَجَرَ الْإِنْسَانُ السَّكْرَ (سَكَّرَ النَّهْرَ: مَا يَسُدُّ بِهِ)، يُقَالُ: فَجَرْتُهُ فَاَنْفَجَرَ، وَفَجَرْتُهُ فَتَفَجَّرَ"⁽¹⁾. والوارد في القرآن الكريم من المادَّة على نوعين؛ إمَّا انفجار مادِّي كالعيون والأنهار ونحوها، وإمَّا انفجار معنوي، وهو الفجور لما فيه من شقِّ حدود الشريعة⁽²⁾.

ومعنى الفعل ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ في الآية، أي: يَتَفَجَّحُ بصورة واسعة وكثيرة⁽³⁾؛ لأنَّ التفجَّر فيه معنى المبالغة والكثرة.

(5) ﴿الْأَنْهَارُ﴾: جذره اللُّغَوِيّ (ن ه ر)، "وَنَهَرْتُ النَّهْرَ: حَضَرْتُهُ. وَنَهَرَ الْمَاءُ، إِذَا جَرَى فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ نَهْرًا"⁽⁴⁾.

والأصل في معناه دلالته على الفتح والتفتُّح والشَّقِّ، وتسمية النَّهَرِ المعروف؛ لأنَّه يَنْهَرُ الأرض، أي: يجري فيها، ويشقُّها⁽⁵⁾.

ومعنى النَّهْرُ: هو "مَجْرَى الْمَاءِ الْفَائِضِ، وَجَمْعُهُ: أَنْهَارٌ... وَالنَّهْرُ: السَّعَةُ، تَشْبِيهًُا بِنَهَرِ الْمَاءِ، وَمِنْهُ: أَنْهَرْتُ الدَّمَ، أَي: أَسْلَيْتُهُ إِسَالَةً، وَأَنْهَرَ الْمَاءُ: جَرَى، وَنَهَرُ نَهْرٍ: كَثِيرُ الْمَاءِ"⁽⁶⁾.

(6) ﴿يَشَقُّقُ﴾: فعل مضارع، أصله يَتَشَقَّقُ، الجذر اللُّغَوِيّ منه (ش ق ق)، و"شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشَقَّهُ شَقًّا، وَكُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهُ شَقَّةٌ، يَجْمَعُ ذَلِكَ الثُّوبَ وَالْخَشْبَةَ وَمَا أَشْبَهَهُمَا"⁽⁷⁾، والأصل في معناه: دلالته على الانصداع، وهو قرين التَّشَقُّقِ والتَّشْطُّطِ⁽⁸⁾.

و"الشَّقُّ: الْحَرَمُ الْوَاقِعُ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ: شَقَقْتُهُ بِنِصْفَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: 26]"⁽⁹⁾. والشَّقُّ هو الحرم الكبير الواسع.

ومعنى تشقَّق الحجارة في الآية: هو التَّصَدُّعُ⁽¹⁰⁾.

(1) الزَّاعِبُ، للفردات: (فجر).

(2) جبل، للعجم الاشتقاقي للوُضَل: (فجر).

(3) البضاوي، أنوار التنزيل: 1/88.

(4) الجوهري، الصحاح: (نهر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر).

(6) الزَّاعِبُ، للفردات: (نهر).

(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (شق).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شق).

(9) الزَّاعِبُ، للفردات: (شق).

(10) ابن جرير، جامع البيان: 2/239.

(7) ﴿فَيَخْرُجُ﴾: الجذر اللغوي له (خرج)، ومنه "الخُرُوجُ : نقيض الدُّخُول... والخُرُوجُ: السَّحَابُ أَوَّلُ ما يَبْدَأُ. والخَرْجُ والخَرَجُ: ما يُخْرَجُ من المال في السَّنة بِقَدَرٍ معلوم" (1).

والأصل في معناه على ضربين؛ الأول وهو المقصود أن ينفذ عن الشيء، ومنه الخَرَجُ، أي: الإِثَاوَةُ؛ لأنَّه ما لَمْ يُخْرِجْهُ الْمُعْطِي... والخُرُوجُ: خُرُوجُ السَّحَابَةِ؛ يُقَالُ: ما أَحْسَنَ خُرُوجَهَا (2)، فالمعنى الظُّهور والبروز، والتَّفَاذُّعُ عن الشيء؛ لذلك يُقال لكلِّ من برز من مكان قراره أو وضعه، إن كان ذلك المقرَّ بَيْتًا أو مَوْطِنًا أو لِبَاسًا أو غير ذلك، ولو كان حالة نفسية (3).

ومعنى ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ في الآية، أي: "فيكونُ عَيْنًا لا نَهْرًا جارِيًا، أي: أَنَّ الحِجَارَةَ قد تَدَدَى بالماءِ الكثيرِ، وبالماءِ القليلِ" (4).

(8) ﴿الْمَاءُ﴾: اسم جنس يُطلق على القليل والكثير، جذره اللغوي (موه)، و"المُوهَةُ: لونُ الماءِ، يقال: ما أَحْسَنَ مُوهَةَ وَجْهِهِ. وتصغير الماء: مُوَيْهِ. والجميعُ: المياه، والنَّسْبَةُ إلى الماء: ما هِيَّ، وماهتِ السَّفِينَةُ تَمُوهَ وَتَمَامُ، إذا دَخَلَ فيها الماءُ" (5)، ولا يبعد الأصل عند ابن فارس عن هذا المعنى؛ فَإِنَّ "مُوهَتُ الشيء، كأنَّكَ سَقَيْتَهُ الماءَ. ومُوهَتُ الشيء: طَلَيْتَهُ بفضَّةٍ أو ذهبٍ، كأنَّهُمْ يَجْعَلُونَ ذلك بِمَنْزِلَةِ ما يُسْقَاهُ. وقالوا: ما أَحْسَنَ مُوهَةَ وَجْهِهِ، أي: تَرَقَّرَقَ ماءُ الشَّبَابِ فيه" (6).

ومعنى ﴿الْمَاءُ﴾ في الآية هو الماء القليل الذي يكون عَيْنًا؛ لأنَّ الحِجَارَةَ تتفاوت فيها الرُّطوبَةُ، فقد تكون ندية بالماء القليل، وهو المعنى هنا (7).

(9) ﴿يَهْبِطُ﴾: الجذر اللغوي منه (ه ب ط)، و"هَبَطَ الْإِنْسَانُ يَهْبِطُ: إذا انْحَدَرَ في هَبَوطٍ من صَعُودٍ، قَالَ: والهِبْطَةُ: ما تَطَامَنُ من الأرض... وهو نَقِيضُ ارتَفَعُوا" (8).

(1) الخليل، العين: (خرج).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

(3) الزَّاعِبُ، المفردات: (خرج).

(4) الرَّازِي، التفسير الكبير: 3/139.

(5) الخليل، العين: (موه).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موه).

(7) الرَّازِي، التفسير الكبير: 3/139.

(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (هبط).

أَمَّا الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ فَإِنَّ الْهَبُوطَ "كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى انْحِدَارٍ، وَهَبَطَ هُبُوطًا. وَالْهَبُوطُ: الْحُدُورُ. وَهَبَطْتُ أَنَا وَهَبَطْتُ غَيْرِي"⁽¹⁾، فِيمَا زَادَ الرَّاعِبُ عَلَى مَعْنَى الْهَبُوطِ أَنَّهُ انْحِدَارٌ عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ⁽²⁾.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ لِلْحَجَارَةِ قَدْرًا مَا مِنَ الْإِدْرَاكِ تَقَعُ بِهِ الْخَشْيَةُ وَالْحَرَكَةُ⁽³⁾.

(10) ﴿خَشْيَةً﴾: مُصَدَّرٌ لِلْفِعْلِ (خَشَى يَخْشَى)، وَالْجَذَرُ اللَّغَوِيُّ مِنْهُ (خَشَى)، وَهُوَ "يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وَذُعْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْمَجَازُ. فَالْخَشْيَةُ الْخَوْفُ. وَرَجُلٌ خَشِيَانٌ. وَخَاشَانِي فَلَانٌ فَخَشِيَّتُهُ، أَي: كُنْتُ أَشَدَّ خَشْيَةً مِنْهُ"⁽⁴⁾.

وَفِيهِ بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ عِنْدَ الرَّاعِبِ؛ لِأَنَّ "الْخَشْيَةَ خَوْفٌ يَشُوبُهُ تَعْظِيمٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ بِمَا يُخْشَى مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ خُصَّ الْعُلَمَاءُ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾" [فاطر: 28]«⁽⁵⁾.

وَمَعْنَى خَشْيَةِ الْحَجَارَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَي: أَنَّهَا صَاغِرَةٌ لِلَّهِ، وَأَنَّهَا تَهْبِطُ مِنْ شِدَّةِ خُضُوعِهَا، وَتَذَلُّهَا لِرَبِّهَا⁽⁶⁾.

(11) ﴿بَغْفَلٍ﴾: الْجَذَرُ اللَّغَوِيُّ لَهُ (غَفَلَ)، وَمَعْنَاهُ: مِنْ "لَا فُطْنَةَ لَهُ... وَغَفَلْتُ الشَّيْءَ تَغْفِيلًا، إِذَا كَتَمْتَهُ وَسَتَرْتَهُ، وَأَغْفَلْتُ الشَّيْءَ، إِذَا أُنْسِيْتَهُ"⁽⁷⁾.

وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَى الْكَلِمَةِ "تَرَكَ الشَّيْءَ سَهْوًا، وَرَبَّمَا كَانَ عَنْ عَمَدٍ مِنْ ذَلِكَ: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وَغُفُولًا، وَذَلِكَ إِذَا تَرَكَتُهُ سَاهِيًا. وَأَغْفَلْتُهُ، إِذَا تَرَكَتُهُ عَلَى ذِكْرِ مِنْكَ لَهُ"⁽⁸⁾.

وَمِنْهُ الْغَفْلَةُ، وَهِيَ السَّهْوُ الَّذِي يَصِيبُ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَتَحَفَّظْ وَيَكُنْ مُتَبَيِّنًا⁽⁹⁾ "وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّرْكِبِ هُوَ مِنَ الْغَفْلَةِ بِمَعْنَى عَدَمِ التَّنَبُّهِ، وَمَا إِلَيْهِ"⁽¹⁰⁾، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هبط).

(2) الزاغب، للفردات: (هبط).

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/167.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشي).

(5) الزاغب، للفردات: (خشي).

(6) اللاتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/102.

(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (غفل).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).

(9) الزاغب، للفردات: (غفل).

(10) جبل، للعجم الاشتقاقى للؤصل: (غفل).

متفرقة ومجتمعة لا تكون في حقّه تعالى؛ لذلك جاء التعبير القرآنيّ مَنْفِيًّا مُؤَكِّدًا بالباء بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والمعنى: "إشارة إلى غفلتهم عن نزول العذاب بهم، أي: لا تتوهموا أنّ إمهال الله لكم بالعقوبة غفلة منه عنكم، بل هو يعلم منه بتأخير ذلك إلى يوم القيامة"⁽¹⁾.

12 ﴿تَعْمَلُونَ﴾: الجذر اللغويّ منه (عمل)، والأصل في معناه الفعل عامّة⁽²⁾، و"العَمَلُ كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقصد"⁽³⁾.

و"تركيب (عمل) يعبر عن الجهد المادّي وتأثير الأشياء بعضها في بعض، ويعبر به عمّا له إمداد، ووراءه فكر. وقد جاء منه في القرآن الكريم نحو 350 مفردة بالمكررات"⁽⁴⁾ ومعنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في الآية: هي الأعمال الخبيثة، والأفعال المنكرة الرديئة التي يتّصفون بها؛ فهو عالم بها مُحْصِيها عليهم⁽⁵⁾.

❁ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

وصف الله تعالى - بني إسرائيل - بأنّه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات والمعجزات الخارقة ما أزال أثرها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم، لقسوة القلوب المنافية للخشوع؛ لأنّهم استمروا في المخالفات، وانتهاك الحرمات؛ فتصلّبت قلوبهم وغلّظت، فلم ينفذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة، بل باتت لا تنقص عن الحجارة قسوة، وبعضها زاد على الحجارة قسوة وغلظة، ثمّ عذّر الله الحجارة، وعاب على تلك القلوب؛ لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج حتى تنصبّ منه المياه صبّاً، فتصير أنهاراً جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدع فينشق، فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال من خشية الله تعالى وتعظيمه، وبني إسرائيل لا يخشون الله، ولا ترقّ قلوبهم⁽⁶⁾، ثمّ ختم الآية بوعيد وتهديد لهم، وأنّهم على أفعالهم الذميمة فإنّه مراقبهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/389.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل).

(3) الزّاغب، المفردات: (عمل).

(4) جبل، العجم الاشتقاقي للوُضَل: (عمل).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.

(6) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/116، ونخبة من العلماء، التفسير المبسر، ص: 11.

وليس غافلاً عنهم، وعن أعمالهم؛ فإنَّ الله ﷻ إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

❖ الإيضاح اللغويّ والبلاغيّ:

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ تعبيرٌ فريد لم يرد مثله إلا في هذا الموضع من القرآن الكريم، وهو تعبير يتوافر على استعارة مكنيةً تبعيةً؛ فإنَّ "يَبَسَتْ وَجَفَّتْ، وَجَفَأَ الْقَلْبُ: خُرُوجُ الرَّحْمَةِ وَاللَّيْنُ عَنْهُ"⁽¹⁾، وهو ليس على الحقيقة؛ لأنَّ القلوب دم ولحم، ونسبتها للقساوة والصَّلابَة تشبيهاً لحالها في عدم التَّأثُّر والاعتبار بالحجارة القاسية، "والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصَّلابَة كما في الحجر، استُعيرت لنبوّ قلوبهم عن التَّأثُّر بالعِظَات والقوَارِع التي تَمِيعُ منها الجبال، وتلينُ بها الصَّخُور"⁽²⁾.

بلاغة قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾:

حرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ توقيت لقساوة القلوب، واستعمل لإفادة ابتداء الغاية؛ وأتى به لتقريب البعدية، والتَّبْكِير في حصول القساوة؛ للاهتمام به، وبيان خطورته، وثمة فرق بين قوله: (مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ)، و(بَعْدَ ذَلِكَ)، في أنَّ الثاني يحتمل وقتاً متماذاً قد يطول، أمَّا الأوَّل فيكون غِبَّ ذلك الحدث مباشرة، وهو إحياء القتيل، فدلت على المسارعة في قساوة القلوب، وأنَّها لم تحتج وقتاً طويلاً لذلك، وفيه دليل على عظم مرتكبهم، وعلى هذا يكون حرفُ التَّراخي مفيداً للرُّتبة لا لتراخي الزَّمان، أي: ثم قست القلوب بعد التَّحَايِل على الشَّرع، والامتنال بطول مما طلة، لكنَّها لم تُماطل في القسوة بل كان ذلك سِراعاً.

قسوة القلب
وجفافه نتيجة
أفعال التَّحَايِل
على الشَّرع

إفادة المسارعة
في حصول
قسوة القلوب

(1) البغويّ، معالم التَّنْزيل: 1/110.

(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.

وأفاد قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ "زيادة تعجيبٍ من طُرُقِ القساوة للقلب بعد تَكَرُّر جميع الآيات السَّابِقة المُشارِ إلى مَجْموعِها بذلك" (1) أي: مع كلِّ ما مضى من الآيات قست قلوبكم.

مقصدُ التَّشْبِيهِ في قوله: ﴿كَأَلْحِجَارَةِ﴾:

الضَّمير (هي) في قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ عائِدٌ على القلوب، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حول الغلظة والصلابة والشَّدة والخلوُّ من الرِّحمة واللِّين (2)، ومعنى قسوة القلوب في الآية: صلابتها بتشبيهاها بالأجسام الصَّلبة كالحجارة، فالقسوة في القلوب مجازية للمبالغة (3).

وقد شبَّه هذه القلوب بالحجارة في تشبيه مُجَمَّل مُرْسَل بوجود أداة الشَّبه (الكاف)، وحذف وجه الشَّبه وهو القساوة والصلابة، وفي ذلك تشنيع عليهم وتقريع؛ فَإِنَّ مِثْلَ القلوب اللَّين والرَّافة والخشوع والخضوع، لا القسوة والغلظة، ومعنى تشبيه القلوب بالحجارة تشبيه تلك القلوب بالحجارة بجامع الصَّلبة والغلظة والقساوة؛ فَإِنَّ في إطلاق قساوة القلوب انصراف الذَّهن إلى الحجارة القاسية (4).

فائدةُ الإِتْيَانِ بحرفِ العطفِ (أو) في قوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: في قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، لَمَّا شَبَّهَهُم بالحجارة ابتداءً "بما هو أَشْهَرُ، ثُمَّ عَقَّبَ التَّشْبِيهَ بالتَّرْقِيٍّ إلى التَّقْضِيلِ في وَجْهِ الشَّبهِ" (5)، وفيه تقبيحٌ لهم أراد زيادة هذا التَّقْبِيحِ والتَّقْرِيعِ فأضربَ عن صلابَةِ الحجارة إلى وصف أبلغ منه؛ فقال:

تشبيه قلوبهم
بالحجارة تشنيع
عليهم وتقريع
على أحوالهم

تردّد قساوة
قُلُوبِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ بين
قَسَاوَةِ الحجارة
وما هو أَشَدُّ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ: 1/562.

(2) السَّمين، غمدة الحَقَافِ: (قسو).

(3) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/292.

(4) البدوي، من بلاغة القرآن: 152.

(5) ابن عاشور، التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ: 1/563.

(أو أشدّ قسوة) "فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ، أو إن شَبَّهْتُم قلوبهم بالحجارة أصبتم، وبما هو أشدّ أصبتم" (1)؛ فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ قسوة منها، وفي ذلك زيادة تبكيت وتقريع لمرتكباتهم وأفعالهم السيئة.

بلاغة التعبير بأفعل التفضيل في قوله ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾:

شَبَّهتِ القلوبُ في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ "بالحجارة بجامع المساواة في كُلِّ منهما، لكنّ قساوة قلوبهم قساوة معنويّة تجاه الحقّ والخير والفضيلة، أمّا الحجارة فقساوتها مادّيّة" (2)، فهو تشبيه لا يُراد منه المساواة، بل تفضيل الحجارة في قساوتها على القلوب؛ لأنّ قساوة الأولى طبيعيّة، وقساوة الأخرى ناتجة عن سوء الأعمال.

والتعبيرُ بأشدّ قسوة في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، دون أقسى؛ "لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة، ووجه آخر؛ وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنّه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة" (3)، فلفظة (أشدّ) مُتضمنة معنى المبالغة، ودلالته على ذلك بالجواهر والهيئة، أمّا أقسى فدلالته بالهيئة فقط (4).

**طَرُؤُ القساوة
على القلوب
دليلٌ قبجها،
وقساوة
الحجارة دليلٌ
جمالها**

فبانَ لنا ممّا سبق أنّ تشبيه القلوب بالحجارة ليست الغاية منه المساواة في القساوة، وإنّ كان الجنس مُختلفاً، بل إنّ الحجارة في هذا التّشبيه أفضل من القلوب؛ لأنّ ذلك يرجع "إلى معنى عدم قبول التّحوّل كما تقدّم؛ فهذه القلوب قساوتها عند التّمحيص أشدّ من قساوة الحجارة؛ لأنّ الحجارة قد يعترىها التّحوّل عن صلابتها وشِدَّتِها بالتّفريق والتّشقّق، وهذه القلوب لم تُجدِ فيها مُحاولَةٌ" (5).

(1) ابن عجيبة، البحر اللديد: 1/193.

(2) البدوي، البلاغة العربية: 2/128.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/286.

(4) الألوسي، روح المعاني: 1/296.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/564.

بلاغة تعدد التعقيب بعد ذكر التشبيه:

قساوة الحجارة
نافعة، وقساوة
القلوب مُضِرَّة
ومفسدة

بعد تشبيه القلوب القاسية بالحجارة، والإضراب عن درجة قسوتها، وإثبات أن قلوبهم أشد قسوة، ذكر أنواع الحجارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الذي فيه "معذرة للحجارة، وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلة القسوة.

معذرة لقسوة
الحجارة،
وتبكي للقلوب
القاسية

وقال قتادة: عذر الله تعالى الحجارة، ولم يعذر شقي بني آدم⁽¹⁾، فالحجارة على قسوتها فيها شيء نافع، والقلوب ليست كذلك، وقد "فُضِّلَ الحجارة على قلوبهم بأنَّ بينَ أنَّ الحجارة قد يَحْصُلُ منها ثلاثة أنواعٍ مِنَ المنافع، ولا يوجدُ في قلوب هؤلاء شيءٌ مِنَ المنافع"⁽²⁾، وهذه المنافع هي تفجُّر الأنهار، وخروجُ الماء من الحجارة، وهذه منافع ماديَّة، وهبوطها من خشية الله، وهذه منافع معنويَّة مقابل القلوب التي لا نفع فيها.

التعبير بصيغة المضارع في الأفعال المشبهة بها:

الدلالة على أنَّ
هذه الأحداث
متجددة
مستمرة وهي
من آيات الله
الباهرة

دُكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ الأفعال المُتعلِّقة بالحجارة بصيغة أفعال مضارعة: (يَتَفَجَّرُ) و(يَشْقَقُ)، على زنة (يَفْعَلُ)، ماضيه (تَفَعَّلَ) فـ" (تَفَعَّلَ) الذي للعمل المتكرر في مهلة مطاوع (فَعَلَ) الذي للتكثير"⁽³⁾؛ فهذه الأفعال تدلُّ على أحداث متجددة مستمرة، فالتفجُّر "التفتُّح بالسَّعة والكثرة... وَيَشْقَقُ: يتشقق.. والمعنى: إنَّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفَّق منها الماء الكثير الغزير"⁽⁴⁾، وهي من الآيات الكونيَّة المعجزة في تعبيرها القرآني.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/167.

(2) الرازي، التفسير الكبير: 3/139.

(3) الرضي، شرح الشافية: 1/105.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/565.

بلادة إسناد التفجّر للأنهار لا الماء الأنهار:

”النَّهْرُ: أصله الشَّقُّ الواسع الذي يجري فيه الماء، من: نهَرْتُ الشيءَ، أي: شَقَّقْتَهُ شَقًّا واسعًا، ثُمَّ تَجَوَّزَ بِهِ عَنِ الْمَاءِ الْجَارِي فِيهِ لِلْمَجَاوِرَةِ“⁽¹⁾، والمُرَادُ مِنَ الْأَنْهَارِ فِي الْآيَةِ ”الماء الكثير الذي يجري في الأنهار، والكلام إمّا على حذف المضاف، أو ذكر المحلّ وإرادة الحال، أو الإسناد مجازي“⁽²⁾، فهو ليس على الحقيقة؛ لأنّه إسناد الجريان إلى المكان، وهو من باب إطلاق اسم المحلّ على الحال، والغرض منه المبالغة في وصف جريان الماء وشدة تدفّقه.

المبالغة في كثرة
الماء المُتَفَجِّرِ،
وشدة تدفّقه

نكتة توالي التوكيدات في الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ مشحونًا بأنواع من التوكيدات، منها التوكيد ”بإِنَّ للاهتمام بالخبر، وهذا الاهتمام يُؤدِّن بالتعليل، ووجود حرفِ العطفِ قبلها لا يُبَاكِدُ ذلك“⁽³⁾، فضلاً عن وجود اللام الدّاخلية على ما⁽⁴⁾، وتكرار هذا التوكيد مع كلّ جملة من هذه الجمل الثلاث، فهذه التوكيدات الغرض منها رفع توهم من ليس له يقين بحصول هذه الأشياء، كتفجّر الأنهار، وخروج الماء، وهبوط الحجارة.

دفع توهم من
لا يتيقن وقوع
الذّكورات

سّر ترتيب أنواع الحجارة بعضها على بعض:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، جملٌ ثلاث تتحدّث عن أنواع حجارة لها فوائد، ”وقد ترقى النظم الكريم في بيان التّفضيل، كأنّه بين أوّلًا تفضيل قلوبهم في المساواة

رتبها بحسب
منفعة كلّ منها
مادّيّة كانت أم
معنويّة

(1) السّمين، عمدة الحقاظ: (نهر).

(2) الألوسي، روح المعاني: 1/296.

(3) الزّمشري، الكشاف: 1/287.

(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/116.

على الحجارة التي تتأثر تأثراً يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجّر الأنهار، ثم على الحجارة التي تتأثر تأثراً ضعيفاً يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، ثم على الحجارة التي تتأثر من غير منفعة⁽¹⁾. فكان الحق تبارك وتعالى يقول: إنّ قلوب هؤلاء قاسية كالحجارة، مع أنّ هذه فيها من المنفعة العظيمة ما ليس موجوداً في تلك القلوب. وقدّم الحق تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ الحجارة التي تتفجّر منها الأنهار على الحجارة التي تتشقق فيخرج منها الماء، ولا شك أنّ الأولى أكبر وأعظم من الثانية؛ فبدأ بها، إذ العطاء الربّاني مع الأنهار أكبر من الأخرى؛ لأنه "عندما تتفجّر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي إلينا، ونحن في أماكننا.. وفرق بين عطاء تذهب إليه، وعطاء يأتي إليك"⁽²⁾.

الآية الأعظم
مقدمة في الذكر

وذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ من أمر هؤلاء صفتين للحجارة تفضل بهما بني الإنسان؛ وهما تفجّر الأنهار، وتشققها ليخرج الماء، ثم ثلث بأنّ منها ما يهبط من خشية الله، فكان من حسن التّخلص⁽³⁾، وبديعه في التعبير "عَنِ التَّسْخُرِ لِأَمْرِ التَّكْوِينِ بِالْخَشْيَةِ؛ لِيَتِمَّ ظُهُورُ تَفْضِيلِ الْحِجَارَةِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي أَحْوَالِهَا الَّتِي نَهَايَتُهَا الْإِمْتِثَالُ لِلْأَمْرِ التَّكْلِيفِيِّ، مَعَ تَعَاصِي قُلُوبِهِمْ عَنِ الْإِمْتِثَالِ لِلْأَمْرِ التَّكْلِيفِيِّ"⁽⁴⁾؛ لينتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فحسن خروجه إلى هذا المعنى بعد المعنيين السابقين.

تأخّرها من باب
حسن التّخلص

(1) الألوسي، روح المعاني: 1/296.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/403.

(3) حسن التّخلص يُقصد منه «إيجاد الرّبط بالمناسبة على وجه لا يُقال فيه: إنّ هنا كلامين منفصلين مستقلّين أتى بأحدهما وهو الثّاني بغتة، والافتضاب فيه القصد إلى الإتيان بكلام بعد آخر على وجه يُقال فيه: إنّ الأوّل منفصل عن الثّاني ولا ربط بينهما» الدّسوقي، حاشية الدّسوقي على مختصر المعاني: 4/296.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/565.

إِسْنَادُ الْخَشْيَةِ إِلَى الْحَجَارَةِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ:

إذا كان الهبوط أمراً مشتركاً بين بني الإنسان وغيره كالحجارة، فإنَّ الخشية أمرٌ مُختَصٌّ ببني آدم من الْمُتَّقِينَ، إلا أنَّ التَّعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ خَلَعَهُ على الجمادات من الحجارة، وهو "مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد، ولا تفعل ما أمرت به" (1).

وَضَعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ جملة مُشْتَمِلَةٌ على اسمه تعالى (الله)، جاءت بعد جملة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهي الأخرى مُشْتَمِلَةٌ على اسمه تعالى (الله)، فذكر الاسم في الجملة الثانية يَدُلُّ على "أَنَّ الله تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظ لأعمالهم مُحْصٍ لها؛ فهو يُجَازِيهِمْ بها في الدنيا والآخرة... وفي هذا وَعِيدٌ لهم، وَتَخْوِيفٌ كبيرٌ لِيَنْزَجِرُوا" (2)، وهو من باب وضع الظاهر موضع المضمَر؛ تفخيماً للشأن، وتخويفاً لهم من سوء أعمالهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْأَسْمَاءِ وَالْفِعْلِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ جملة مَنْفِيَّةٌ بِالْأَسْمَاءِ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرًا مع الباء الدالة على التَّوكِيدِ؛ للدلالة على نفي الغفلة عنه تعالى على الدوام؛ لدلالة الاسم على الثَّباتِ والدَّوامِ، وأنَّهم مراقبون على أعمالهم حاضراً ومُستقبلاً بدلالة وصف حالتهم العمليَّة بالفعليَّة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الدَّالَّةُ على الحاضر والمستقبل؛ وفي هذا التَّعبير تهديدٌ وترهيبٌ، فإذا كانتِ الأعمالُ القبيحة

تَلْمِيحٌ إِلَى
أَفْضَلِيَّةِ الْحَجَارَةِ
عَلَى بَعْضِ
الْبَشَرِ

تَفْخِيمٌ لِلشَّأْنِ
وَتَخْوِيفٌ لِلنَّاسِ
مِنْ سُوءِ
أَعْمَالِهِمْ

نَفْيُ الْغَفْلَةِ يُرَادُ
مِنْهُ التَّهْدِيدُ عَلَى
أَعْمَالِهِمْ حَاضِرًا
وَمُسْتَقْبَلًا

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 1/287.

(2) الرَّازِيُّ، التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ: 3/558.

مُتَجَدِّدَةً فِيهِمْ، فَعُقُوبَةُ اللَّهِ ثَابِتَةٌ لِمُرْتَكِبِيهَا، إِذِ التَّعْبِيرُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ يُرَادُ مِنْهُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ.

توجيه القراءات القرآنية في قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

**الجمع
بين الوعيد
للمستقبل،
والتقريع على
الماضي**

قرأ ابن كثير: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء⁽¹⁾، وفي ذلك التفات من الخطاب إلى الغيبة، فسياق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، "يقتضي الخطاب، فيُقال: تعملون، ولكن التفت إلى الغيبة إعرافاً عن خطاب هؤلاء الذين قست قلوبهم، وتحقيراً لشأنهم، وإشعاراً بأنهم في حالة من البعد عن أهلية خطاب الله تعالى لهم"⁽²⁾، فقراءة الجمهور جاءت على ما يقتضيه الظاهر، وفيه تهديد ووعيد مباشر، وقراءة ابن كثير جاءت التفاتاً، تحقيراً لشأنهم، فاجتمعت القراءتان في وعيدهم وتحقيرهم، جزاءً على أعمالهم الصادرة عنهم، والتي ستصدر في المستقبل، وفيها من القوة الدلالية ما لا يخفى.

❁ الفروق المعجمية:

القسوة والغلظة:

وُصِفَت الْقُلُوبُ هُنَا بِالْقَسْوَةِ؛ بِإِسْنَادِ الْفِعْلِ (قَسَتْ) إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وَلَمْ تُوصَفْ بِالْغُلْظَةِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، مَعَ تَقَارُبِ مَعْنِيهِمَا؛ لِأَنَّ الْقَسْوَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَعْنِي: صَلَابَةَ الْأَتْنَاءِ مَعَ حَدَّةٍ أَوْ جَفَافٍ كَالصَّخْرِ وَالْحَجَرِ، وَالْأَرْضُ الْقَاسِيَةُ صَلْبَةً جَافَةً لَا تَتَفَلَّقُ بِالنَّبَاتِ، فِي حِينَ أَنَّ الْغُلْظَةَ تَعْنِي عِظَمَ الْجَرَمِ وَتَجَسُّمَهُ مَعَ صَلَابَةٍ، وَيَلْزَمُهُ الشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ، وَالْحَدَّةُ كَغَلْظِ الْأَرْضِ، وَالثُّوبِ الْغَلِيظِ، وَالسَّنْبِلُ الَّذِي فِيهِ الْحَبُّ. وَمِنْهُ: "اسْتَغْلَظَ النَّبَاتُ وَالشَّجَرُ: صَارَ غَلِيظًا" ﴿فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: 29]⁽³⁾.

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 161.

(2) محمد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 2/109.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي للوُضَل: (غلظ)، (قسو).

فالقَسْوَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي مَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ، وَلِهَذَا يُوصَفُ بِهَا الْقَلْبُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صُلْبًا⁽¹⁾.
والقلب القاسي لا ينتفع بالمواعظ، ولا يعتبر بالآيات؛ لشدّة صلابته وحدّته؛ بحيث لا
يخرق شغافه حبّ، ولا يتسلّل إليه ذكر، ولا تخالطه رحمة.
والغلظ يدلُّ على عظم الجرم وحدّته، كما يشير إلى الجفوة، وعدم احتواء المخالط،
وهذا المناسب لنفي غلظة قلبه ﷻ، وإثبات رِقته ورحمته، بمفهوم المخالفة، وبنصوص
أخرى كثيرة.
ولذلك أثر الأسلوب القرآني لفظ القسوة هنا في مقام عدم الاعتبار، ورفض العظة،
واجتناب الحقّ والخير، وهو ما يتناسب وقلوب بني إسرائيل.

الخشية والخوف:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أثر السياق هنا الخشية دون
الخوف مع أنّهما متقاربان في المعنى؛ ذلك "أَنَّ الْخَوْفَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَكْرُوهِ، وَيَتْرَكُ الْمَكْرُوهَ،
تقول: خفت زيداً، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]... والخشية تتعلّق
بمَنْزِلِ الْمَكْرُوهِ، وَلَا يُسَمَّى الْخَوْفُ مِنْ نَفْسِ الْمَكْرُوهِ خَشْيَةً؛ وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الزّمد: 21]"⁽²⁾.

فالخوف مقرون بمعرفة، وتعظيم للمخوف منه، والخشية أخص من الخوف الذي هو
بمعنى هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. وإن لم يكن المخوف منه معظماً. فهي
خوف مبني على العلم بعظمة من يخشاه، وكمال سلطانه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وجاء في قوله ﷻ: «عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت
من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»⁽³⁾.

فلفظ الخشية هنا أنسب؛ لأنّها تدلُّ على معرفة الخاشي، كما تدلُّ على عظمة المخشي

منه ﷻ.

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 109.

(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

(3) رواه الترمذي، حديث رقم: (1639)، وينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 1/71-73، وابن القيم، مدارج السالكين: 1/549، وابن
عثيمين، مجموع الفتاوى: 6/56، وابن عثيمين، القول للفيد: 2/170-171.

الفعل والعمل:

العمل أخص من الفعل؛ لأنَّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعمل قلماً ينسب إلى ذلك. والعمل أعمُّ لأنَّه من أعمال الجوارح والقلب، ويدخل فيه الأقوال؛ لأنَّها عمل اللسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التَّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال، فيقولون: سديد الأقوال والأفعال⁽¹⁾.

والعمل لما كان مع امتداد زمان نحو ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: 13] وكذا ما في [الأنبياء: 82] وأنَّ العمل لا يُقال إلَّا في ما كان عن فكر وروية، ولهذا قُرنَ بالعلم⁽²⁾.

وأضيف أنَّ الملحظ الأخير عن الفكر والروية كأنَّه مُتَمِّم أو لازم للمحظ امتداد زمن العمل، كما أضيف أن ممَّا يؤيِّد ملحظ الامتداد هذا أنَّنا نسأل الشَّخص عن حرفته فنقول له: ما عملك؟ والعرب تقول: "رجل عَمُول: إذا كان كسوبًا. وفلان خبيث العِملَة - بالكسر - أي الكسب (السعي الذي يحصل منه رزقه)"⁽³⁾.

فلفظ (العمل) هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنسب؛ لأنَّه أعمُّ، ولأنَّه يشير إلى أعمال القلوب والجوارح.

(1) الرَّاغِب، المفردات، والسَّمِين، غمدة الحفَّاظ: (عمل).

(2) الكفوي، الكليات، ص: 616.

(3) جبل، العجم الاشتقاقي للوَصْل: (عمل).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، للجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،

قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 1، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-52-1

يشتمل على إرجاعات ببلوغرافية.

مج. 1: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغامي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-52-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»